طبيعة الإكسيولوجيا أصنافها ومعاييرها

د. فيصل بشير محمد الخراز

جامعة مصراتة

مقدمة:

الفلسفة مثل أي علم آخر لها لغتها الخاصة بها، حيث لا يمكن فهمها إلا بمعرفة هذه المصطلحات التي هي بمثابة المفتاح للدخول إليها، مثل ما لا يمكن فهم الفيزياء إلا إذا عرفنا مصطلحاتها، والفلسفة ليست غامضة أو صعبة في حد ذاتها كما يتصور الكثيرون، ولكن تكمن المشكلة في معرفة المصطلحات التي تخصها، والواقع أن الفيلسوف لا يمكنه التعبير عن الأفكار الفلسفية باللغة المعتادة Ordinary Language لأن الفلسفة تحتاج إلى أدوات - مصطلحات- لاستخدامها في التعبير عن الأفكار العميقة والتجريدات العقلية، وعلى هذا الأساس تم عنونة هذا البحث بالمصطلح الفلسفي الإكسيولوجيا وهو "مبحث القيم" لغويًا، ولابد من الإشارة إلى أن موضوع الفلسفة نفسه قد اختلف من عصر إلى عصر؛ بل ومن فيلسوف إلى فيلسوف، فاهتمامات الفلاسفة في العصر اليوناني تختلف عنها في العصر الوسيط الإسلامي والمسيحي، واهتمامات الفلاسفة في العصر الحديث تختلف عما كانت عليه في العصرين القديم والوسيط.

وعلى أية حال فإنه بالاطلاع على تاريخ الفكر الفلسفي، منذ نشأته المحددة عند اليونان الأقدمين وحتى تاريخنا المعاصر يمكن أن نتبين أن ثمة مجالات رئيسة تُعدُّ ميدانًا للبحث الفلسفي على النحو التالي أوَّلا مبحث الوجود وهو الذي يعرف في الفلسفة العامة باسم الانطولوجيا Ontology، **ثم** ظهور مبحث المعرفة في مجال الفكر الفلسفي لاحقًا والذي يعرف باسم الأبستمولوجيا Epistemogogy، ويلي ذلك مبحث القيم

الإكسيولوجيا[1] Axjology، وهو أحد المباحث الأساسية في الفلسفة العامة وهو موضـــوع بحثنا هذا ويتركز البحث فيه حول طبيعة القيم وأصنافها ومعاييرها؛ وهذا المبحث يرتبط بكل من المنطق وعلم الاخلاق وفلسفة الجمال، الإلهيات.

ومبحث القيم هو الذي يهتم بالبحث في قيم الأشياء وتحليلها وبيان أنواعها وأصولها، فإن فسرت القيم بنسبتها إلى الصور الغائية المرتسمة في الذهن كان تفسيرها مثاليا، وإن فسرت بأسباب طبيعية أو نفسية أو اجتماعية كان تفسيرها واقعيًّا أو موضوعيًّا.

وإذا كانت القيم الأساسية يمكن أن تتمثل في ثلاث: هي الحق والخير والجمال، فإن كل قيمة منهما قد شكل البحث فيها فرعًا هامًا من فروع الفلسفة فقيمة "الحق" هي التي تمثل البحث في علم المنطق "logic" أما قيمة "الخير" فهي التي يتمحور حولها البحث في علم الأخلاق "Ethics" أما قيمة "الجمال" فإنها تمثل محور البحث فيما يسمى بعلم الجمال "Aesthetics" أو الاستاطيقا، وعلى هذا الأساس تم عنونة هذا البحث بالمصطلح الفلسفي الإكسيولوجيا وهو "مبحث القيم" لُغويا.

وتأتي إشكالية البحث نظرًا لما للإكسيولوجيا من مكانة هامة في جميع مجالات حياتنا بشتى أشكالها المادية والمعنوية التي من شأنها تنظيم الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والنفسية وتساعد في الوصول إلى الأهداف المنشودة.

وعلى الصعيد الفلسفي فقد تنافس الفلاسفة في الدراسة والشرح والتحليل لمفهوم الإكسيولوجيا ومعانيها المتباينة.

وهذا ما طرح العديد من التساؤلات حول النقاط الآتية:

- مفهوم اللفظ لغة واصطلاحًا.

1- The Eneyclopedia of philosophy, London 1975.

- مبحث الإكسيولوجيا على امتداد تاريخ الفلسفة وتتبع مراحل تطورها.
- نظرية الأخلاق إلى توحد بين الفضيلة والعلم.
- تضارب مواقف الفلاسفة والمفكرين من حيث تصنيف مواقف الاسكيولوجيا.

وتأتي أهمية البحث في الوصول إلى معرفة مفهوم القيمة وطبيعتها وأصنافها ومعاييرها ومعرفة مراحلها التاريخية وتتبع مراحل تطورها، والأهم من ذلك معرفة آراء الفلاسفة بمختلف اتجاهاتهم وتصنيفهم لمفهوم الإكسيولوجيا والوصول إلى التباين والخلاف في جهاتهم ورؤاهم الفلسفية.

وإذا كان المنهج التاريخي أداة يمكن أن نرصد بها امتداد تاريخ الفلسفة ومعرفة بدايات استخدام مصطلح الالكسيولوجيا فان المنهج التحليل هو المخول له رصد حركة هذا العمل في صورة حركة جدلية مما يمكن القارئ من هذا المفهوم من تحليل أهم آراء هؤلاء التحقق من الفلاسفة ومن تأثرهم بغيرهم من الفلاسفة والمعاصرين لهم أو هؤلاء الذين سبقوهم.

ونصل إلى الخاتمة وأهم النتائج.

مفهوم الإكسيولوجيا "القيمة":

مما لاشك فيه أن الإكسيولوجيا " القيمة" تمثل مكانة هامة في حياتنا اليومية وفي جميع شؤوننا المادية والمعنوية، فالقيمة هي المنظار الذي به نستطيع تنظيم حياتنا من جميع جوانبها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وحتى حاجاتنا النفسية، وهي الرغبة التي تحدو بنا نحو الوصول إلي تحقيق أهدافنا على المستوى الغريزي والعقلي؛ أما المستوى الفلسفي فكان لمفهوم الإكسيولوجيا حظًا وافرًا من الدراسة والتحليل عند الفلاسفة بمختلف اتجاهاتهم

ومدارسهم ولقد أسهب العديد منهم في البحث والشرح لمعانيها ومفاهيمها المتباينة ولذلك يتوجب علينا بداية التساؤل أولاً عن مفهوم اللفظ لغة واصطلاحًا؟

وإذا ما بحثنا عن الاشتقاق اللغوي لكلمة "إكسيولوجيا" وهي علم القيمة أو نظرية القيمة "axiology" سنجد أنها مشتقة من الكلمة اليونانية "axia" قيمة وكلمة "logos" علم أو نظرية، والإكسيولوجيا كمبحث فلسفي مستقل يدرس مشكلات القيم الاقتصادية والجمالية والأخلاقية والتاريخية.... الخ، ولم يظهر إلا منذ فترة قصيرة نسبيًّا، أي: في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[1].

ويرى البعض الآخر أن المصطلح نفسه قد أدخله في مطلع القرن الحالي الفيلسوف الفرنسي " لابي" وكذلك استخدمه هارتمان Hartmann عام 1906 تم تلاهما غيرهما من الباحثين، وكتب أول بحث اكسيولوجي منظم في هذا القرن ايربان w.m.urban تحت عنوان التقويم Valuation وتلاه غيره من الباحثين[2].

أما الأصل اللاتيني للفعل الذي يدل على معنى القيمة، وهو Valeur فإنه يعني أني قوي وأني أتمتع بصحة جيدة ثم أصبح هذا المعنى يشير إلى فكرة عامة وهي أن يكون الإنسان بالفعل، أن يكون ناجحًا أو متكيفًا، ومازالت كلمة قيمة باللغة الفرنسية والكلمات التي تقابلها باللغة الانجليزية "worth" والألمانية تحتفظ بشي من رواسب معناها اللاتيني[3].

1- مختار البسيوني، الوضعية المنطقية بين القيم الدينية والأخلاقية عند ألفرد إيو وكالة الشرق للطباعة، مصر، 2002م، ص18.

2- السابق ص 19.

3- عادل العوا، العمدة في فلسفة القيم، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1960م، ص 270.

قيمة الشيء في اللغة قدره، وقيمة المتاع ثمنه، يقال قيمة المرء ما يحسنه وما لفلان قيمة أي ما له ثبات ودوام على أمر.

وبداية استخدام مصطلح القيمة كانت في علم الاقتصاد، وبالتحديد الاقتصاد السياسي، حيث أصبح مصطلحا "القيمة" و"التقييم" من المصطلحات الأساسية في الدراسات الاقتصادية التي تهتم بنظرية القيمة[1].

القيمة مرادفه للثمن إلا أن الثمن قد يكون مساويًا للقيمة أو زائدًا عليها أو ناقصًا عنها والفرق بينهما أن ما يقدر عوضًا للشيء في عقد البيع يسمى ثمنًا له، كالدراهم والدنانير وغيرها، على حين أن القيمة تطلق على كل ما هو جدير باهتمام المرء وعنايته، لاعتبارات اقتصادية أو سيكولوجية أو اجتماعية أو أخلاقية أو جمالية[2].

"وقيمة الشيء من الناحية الذاتية هي الصفة التي تجعل ذلك الشيء مطلوبًا ومرغوبًا فيه عند شخص واحد أو عند طائفة معينة من الأشخاص مثال ذلك قولنا" إن للنسب عند الأشراف قيمة عالية[3].

هذا ويطلق اصطلاح قيمة الاستعمال Valeur d, usage على ما للشيء في نظر الشخص الذي يطلبه من قدر وثمن، وهذا المعنى مختلف عن معنى المنفعة؛ لأن الشيء قد يكون ذا قيمة عظيمة في نظر بعض الناس ولا يكون له مع ذلك نفع حقيقي، ويطلق لفظ القيمة من الناحية الموضوعية على ما يتميز به الشيء من صفات تجعله مستحقًا للتقدير كثيرًا أو قليلاً،

1- مختار البسيوني، الوضعية المنطقية بين القيم الدينية والأخلاقية عند ألفرد إيو ، السابق، ص19.

2- نفسه.

3- نفسه.

فإن كان مستحقا للتقدير بذاته كالحق، الخير-الجمال، كانت قيمته مطلقة، وإن كان مستحقا للتقدير من أجل غرض معين كالوثائق التاريخية والوسائل التعليمية كانت قيمته إضافية[1].

ويضيف مراد وهبه في معجمه الفلسفي إلى ما قدمه د. جميل صليبا بأن كلمة قيمة من ناحية المدلول المادي إنما هي خاصية تجعل الأشياء مرغوبًا فيها، فالقيمة الاستعمالية لسلعة ما هي المنفعة الناتجة عن استعمالها وكذلك تكون القيمة[2] تبادلية عندما نقابل سلعة بسلعة أخرى أو بالنقد، أما من ناحية المدلول المعنوي فهي من وضع اللاهوتي "ريتشل" Ritshel وغايته أن يقي الدين هجمات العلم، بأن يعين لكل منهما مجالا خاصًا، للعلم الجواهر والقوانين، وللدين القيم[3].

ونجد أيضا في بعض المعاجم من يرى أن "القيمة" هي ما قَوَّمَ به مقوِّم، وترادف "الثمن"، غير أن الثمن هو ما يلزم البيع وإن لم يقيم به، وقد يكون مساويًا للقيمة، زائدًا عليها أو ناقصًا عنها، والحاصل أن ما يقدره العاقدان عوضًا للمبيع يسمى ثمنًا له، وما قدره أهل الاختصاص فيما بينهم للشيء يسمى قيمة[4] وهي ما يكون به الإقبال على الشيء وطلبه من جهة معينة، فإذا كانت للشيء من منافع فهي قيمته الاستعمالية، وإذا كانت لما يمكن أن يبادل به من سلع أخرى فهي قيمته التبادلية[5].

1- السابق ص 213، 212.

2- مراد وهبة وآخرون، المعجم الفلسفي، مراد وهبة، مادة وقيمة، مكتبة يوليو، القاهرة، 1984م، ص133.

3- نفسه.

4- عبدالمنعم الحفني، المعجم الفلسفي، الدار الشرقية، ط: 1، القاهرة، 1990م، ص272.

5- نفسه.

وفي اللغة العربية تشتق كلمة "قيمة" من "القيام"، وهو نقيض "الجلوس"، و"القيام" بمعنى آخر، هو "العزم"، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ... ﴾[1]، وقد يجيء "القيام" بمعنى المحافظة والإصلاح، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ... ﴾[2]، ويجيء "القيام" بمعنى الوقوف والثبات، ومنه التوقف في الأمر، وهو الوقوف عنده من غير مجاوزة له، ومنه قولهم: "أقام بالمكان" هو بمعنى الثبات و"قامت السوق" إذا نفقت، والمقام والمقامة: الموضع الذي يقيم به، و"الاستقامة" هي الاعتدال، يقال: استقام الأمر؛ أما "القوام" فهو العدل، وإذا نظرنا إلى معنى "القيمة" في اللغة أيضًا وجدنا أنها في اللغة واحدة "القيم"، وهي: ثمن الشيء بالتقويم، نقول فيما بينهم، إذا انقاد الشيء واستمرت طريقته فقد استقام لوجهه، وقوم السلعة واستقامها قدرها واستقمت المتاع أي قومته، وفي الحديث: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: لو قومت لنا فقال: الله هو المقوم، أي: لو سعرت لنا، وهو من قيمه الشيء، أي حددت لنا قيمتها، وفي مجال السلوك يقال: أمة قائمة، أي: متمسكة بدينها مواظبة عليه[3]، وقوله تعالى: ﴿... وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝ ﴾[4]، أي: المستقيم الذي لا زيغ فيه، ولا ميل عن الحق.

وإذا كان مصطلح "القيمة" وكذلك مبحث الإكسولوجيا قد ظهر استخدامه منذ عهد قريب، إلا أنه ما ينطوي تحت لوائه من موضوعات قديمة قدم الفكر، فثَمة وسائل شتى

1- سورة الجن: 19.

2- سورة النساء: 34.

3- عادل العوا، السابق ص35، 36.

4- سورة البينة: 5.

قد طرحت على امتداد تاريخ الفلسفة كله بدءًا من الفكر القديم، ويمكننا أن نتتبع هذه المسائل من بداية فكر الإغريق.

2. الإكسيولوجيا "القيمة" ومراحل تطورها:

إن لفظ القيمة في حد ذاته لم يكن موجودًا منذ أفلاطون؛ ولكن الفلاسفة القدماء قد عالجوا مشكلات تندرج تحت مبحث القيمة، مثل الخير، الصواب، الإلزام، الفضيلة، الأحكام الخلقية، الأحكام الجمالية... إلخ.

وجميع هذه المشكلات من أصل واحد، حيث أنها تتعلق بالقيمة، أو ما ينبغي أن يكون، وليس ما هو كائن[1].

وبهذا اعتبرنا مشكلة القيمة عنوانًا جديدًا تطلق بعض جوانبه على موضوعات قديمة، ليتسنى لنا أن نتتبع نشأتها وتجليتها عند بعض المذاهب القديمة، فإذا ارتددنا إلى فلسفات الإغريق، ناظرين إلى المسائل، ففي محاورة فيدون يظهر سقراط وهو يلفت النظر إلى مذهب "أناكساجوراس" القائل بأن العقل هو المصدر العظيم للحركة ثم يستطرد قائلاً بأن "أناكساجوراس" لم يأخذ مذهبه على محمل الجد بصورة كافية؛ لأنه لو فعل لأقر بأن العقل موجه في أفعاله بفكرة ما هو أحسن، وبعبارة أخرى إذا كان العقل هو تفسير الحركة، فان التفسير الأقصى لابد أن يكون في تصور القيمة[2].

كما كان أفلاطون يرى في الخير أو القيمة تتويجًا لعالم المثل، ومبدأ بناء العالم الذي ينظم كل الصور والقوانين، وهو في ذلك يضع القيمة فوق الوجود BEING، فهي المبدأ

1- مختار البسيوني، السابق ص 19، 20.

2- صلاح قنصوه، السابق ص 11، 12.

الأسمى للتفسير[1]، وكذلك كان أرسطو عندما حاول تنسبق الكائنات على أساس غائي teleological بإقامة علاقة الكائن بغاية، أي القيمة الجوهرية لوجوده، لم يؤكد الواقعية الموضوعية للكيفيات القيمية فحسب، بل زعم سموها أيضًا على سائر خصائص الكائنات[2].

ونستطيع أيضا أن نكتشف مفهومًا آخر للقيمة عند السوفسطائين، فالسفسطائية نقلت مشكلة البحث من عالم الطبيعة إلى عالم القيم والأخلاق والسياسة فكانوا أول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض على نحو ما فعل معاصرهم سقراط، وكذلك جاءت فلسفتهم تعكس المضمون الجديد للاتجاهات السياسية والاجتماعية الجديدة، فكانت أقرب ما تكون إلى فلسفة التنوير التي سادت القرن الثامن عشر في فرنسا، وبخاصة فولتير وروسو، وذلك عقب الثورة الصناعية التي تمت في أوربا[3].

فقد أقام السوفسطائيون فلسفتهم على أساس من القول بنسبية الحقيقة Relativity oftruth حيث تمسكوا السوفسطائيون بضرورة رد القيم إلى الإنسان ونظروا إلى تلك القيم على أنها متطورة ونسبية وأصبحوا بذلك خير ممثل للنزعة الإنسانية، فالإنسان كما يقول السوفسطائيون وعلى رأسهم بروتاجوراس هو مقياس الأشياء جميعًا، ولما كانت الكائنات البشرية لا حصر لها، ولما كانت حواس الإنسان فضلاً عن اختلافها من فرد لآخر تختلف في الإنسان نفسه بحسب ظروفه فإن المعرفة صار هذا شأنها، أليس يحدث أن هواءً بعينه يرتعش منه الواحد ولا يرتعش منه الآخر ويكون خفيفًا على هذا وعنيفًا على ذاك، فماذا عسى أن

1- السابق ص12.

2- صلاح قنصوه، السابق ص12.

3- أميره حلمي مطر، الفلسفة عند اليونان، دار النهضة العربية، القاهرة 1977م، ص121.

يكون في هذا الوقت الهواء في ذاته، وعلى ذلك تبطل الحقيقة المطلقة لتحل محلها حقائق متعددة بتعدد الأشخاص وتعدد حالات الشخص الواحد[1].

وهكذا تلمح القيمة عند السوفسطائيين تتغير بتغير الظروف والأحوال، فليست هناك قيمة مطلقة أو مبادئ قيمية ثابتة، وإنما القيمة نسبية عندهم تختلف باختلاف الأشخاص الذين يحملونها ويعبرون عنها.

ولكن سقراط كان من أهم الفلاسفة الذين أقروا ثبات القيم ورفض نسبيتها في رده على السوفسطائيين ولذلك دارت فلسفته حول نظرية المعرفة التي تحصر العلم في الإدراكات العقلية والمعاني الكلية دون الإدراكات الحسية والمعاني الجزئية.

نظرية الأخلاق التي توحد بين الفضيلة والعلم:

حيث كان شعار سقراط أعرف نفسك في توجيه النفس والسيطرة عليها بهدف الوصول إلى السعادة فطالما كان ثمة ذاتية بين العلم والفضيلة، إذًا لكي تكون فاضلاً ينبغي أن تعرف الخير وإذا عرفت الخير فسوف تفعله بطريقة آلية تلقائية، وإذا ما أضفنا إلى هذه التلقائية الوازع الداخلي للإنسان، استطعنا الوصول بالضرورة إلى الخير[2].

وإذا انتقلنا إلى الرواقية فنجد أن "زينون" مؤسس هذه المدرسة قد استمع إلى رجال الأكاديمية وتأثر بتعاليمهم وعنهم أخذ أصول دعوته، ولا غرابة في هذا الرأي الذي يميل إلى رد الأخلاقية إلى العقل الذي ينحدر إلى سقراط ويشيع في فلسفة أفلاطون، وكانت إقامة الأخلاقية على العقل وليس على وجدانات الذات وحدوسها قوام جميع المذاهب الأخلاقية

1- فيصل بدر عون، محاضرات في الفلسفة القديمة، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة 1992م، ص220، 221.

2- أميرة حلمي مطر، الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، دار المعارف، القاهرة، 1988م، ص55.

الأصلية فيما يلاحظ "ستبس" لكن الذي يميز الرواقي عن سابقيه يقوم في التفسير الجانبي لهذا المبدإ[1].

وتمضي الرواقية في نظرتها الضيقة للأخلاق فقالت: إن من الحماقة أن ينشد الإنسان لذاته فيلتمس سعادته التي لا تتحقق إلا بمزاولة الفضيلة، فالإنسان لا يتوخى أن يكون فاضلا ابتغاء اللذة بل إنه يتمسك بالفضيلة من أجل الواجب، وهذه الفضيلة تكمن في الإرادة التي تنصاع لحكم العقل، فكل خير أو شر في حياة الإنسان مرهون بقوة إرادته، فقد يتزل به الفقر مثلاً، ولكن هذا لا يمنعه من أن يظل شريفًا فاضلاً، وهذا يعني أن التزام الفضيلة أو العـــدول عنها إنما يرجع أساسًا إلى إرادة الإنسان، فتكون حريته الباطنية موفورة له تمامًا طالما وفق في تحرير نفسه من قيود جسمه ولا يتيسر له هذا إلا بقمع الشهوات وإقامة الأهواء[2].

وهكذا كانت القيمة الخلقية عند الرواقية خاضعة للمعرفة، وهذا ما قال به سقراط من قبل فكل من يعرف حقيقة الأشياء يكون فاضلاً، وبالتالي يستطيع التوفيق بين شـــهواته ورغباته وبين طبائع الأشياء فأصبحت القيمة الخلقية هنا معرفيه في المقام الأول، وإن كانت الرواقية قد ناقضت نفسها بنفسها حينما ذهبت إلى أن الكون يخضع لضرورة لا مناص منها، وأن الإنسان لا يستطيع عمل شيء لم يقدر عليه، ومع هذا كله فقد انتهت إلى أن الشر عمل الإنسان وأنه مسؤول عنه[3].

1- توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية، نشأتها وتطورها، دار النهضة العربيـــة، القـــاهرة، 1967م، ط: 2، ص88.

2- توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية، السابق، ص88.

3- فيصل بدر عون، السابق ص295.

وكذلك تبدأ نواة "الإكسيولوجيا" أيضا في الفلسفة المسيحية عند القديس "توما الاكويني"، في توحيده بين القيمة العليا والعلة الأولى أي الله باعتباره كائنًا حيا أزليا خيرًا[1].

فقد أدخلت المسيحية أيضا في مجال الأخلاق مشكلة الجبر والاختيار؛ لأن فكرة الثواب والعقاب التي قالت بها من قبل ليس لها معنى إطلاقًا إن لم يكن الإنسان حرا في اختيار أفعاله، أما فلاسفة اليونان فقد كانوا مع اهتمامهم بخيرية الأفعال وشريتها يغفلون مسألة الجزاء والاستحقاق لذلك جعلوا -في بعض الأحيان- مثلهم العليا في مقدور البشر"[2].

ومن هنا نستخلص الحقيقة الوجودية للخير والشر فالخير شيء بالفعل، أما الشر فلا يمكن أن يعد وجودًا حقيقيا؛ بل هو سلب محض، أي أن الشر هو سلب للخير، وهذا يعني أن الخير شيء إيجابي وجودي، أما الشر فهو نقصان وعدم، ثم نرى أن القديس "أوغسطين" يرجع عن معتقداته الأولى في العصر الذي كان يؤمن فيه بالمانوية[3] فبينما كان في تلك الفترة من حياته يقول أن الشر مبدأ للوجود، نراه بعد أن عرف المسيحية وبعد أن اتصل اتصالاً وثيقًا بالأفكار الأفلاطونية يجعل الشر عدمًا وسلبًا للخير فقط[4].

والفضائل الخلقية عند القديس أوغسطين ترجع كلها إلى فضيلة عليا واحدة، وهي فضيلة الحب "حب الله"؛ ولذلك يرى القديس أوغسطين أن الفضائل إذا انقطعت صلتها بالله

1- مختار بسيوني، السابق ص21.

2- توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية، السابق، ص131.

3- المانوية: نسبة إلى شاووس ماني Mani Chueus "216-277"، فارسي الأصل، وكان يدين بالزرادشتية، ثم دخل إلى الديانة المسيحية، وحاول أن يوفق مابين الزرادشتية والمسيحية، انظر معجم الفلاسفة، ج طرابيشي، ص581.

4- عبدالرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، وكالة المطبوعات، الكويت، 1979م، ص36.

أصبحت رذائل، وبهذا أصبحت الفضيلة لا تطلب لذاتها كما يقول الحدسيون ولا من أجل نتائجها النافعة كما يقول التجريبيون؛ لأنها تتمشى مع إرادة الله[1].

وأما إذا انتقلنا إلى ميدان الفلسفة الحديثة فنجد أن الإسهام الحقيقي "لكانط" في مشكلة القيمة إنما يرد إلى الآثار التي ترتبت على ما أسماه بالثورة "الكوبرنيقية"[2] فقد نبذ كانط التصور الكلاسيكي لموضوعية الخير أو القيمة من قبل التفكير التجريبي، فإذا كانت الكيفيات الثانوية مثل اللون والذوق والصوت معتمدة على الذات المدركة، فإن ما يسمى اليوم بالكيفيات الثالثية tertiary، مثل الجمال أو الخيرية، إنما تعتمد بدورها على الرغبة والوجدان الإنساني، غير أن نفى "كانط" للقيم خارج أسوار العالم الموضوعي لم يتم على أساس إبستمولوجي؛ لأنه عاد فاعترف بموضوعية القيم في صورة جديدة، فرغم أنها لا توجد على النحو الذي توجد عليه الموضوعات المادية، إلا أنه يعترف بها مصادرة يلزم التسليم بها على أساس اكسيولوجي، وذلك في قوله بأنه لا يمكن تبرير الاعتقاد بوجود الله والحرية وخلود النفس تبريرًا علميا؛ بل يتحقق ذلك من أجل مواصلة الفعل، فمواصلة الحياة ومباشرتها تلزمنا بالضرورة أن تتحقق أفعالنا، كما لو كانت تلك الاعتقادات صادقة، فهكذا أقام كانط ثنائية بين الإيمان والمعرفة، كما أعلن سمو العقل العملي على العقل النظري[3].

1- توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية، ص131.

2- نسبة إلى نيقولا كوبر نيكوس N. Copernicus "1473-1543" الذي أثبت رياضيًّا دوران الأرض حول الشمس.

3- مختار البسيوني، السابق، ص 21، 22.

ولقد جاء بعد ذلك الفلاسفة الألمان أمثال "رووولف هيرمان" Rudolf Hermann و"ألبرت ريتشل" وكذلك "نيتشه" فتناولوا جميعًا مشكلة القيمة والقيم بمعناها الواسع حتى نالت أهمية فائقة في فلسفاتهم[1].

وإذا كان كانط قد قدم لنا الصورة المثالية النقدية للقيمة فإننا نجد أن ديكارت الذي صنفه مؤرخو الفلسفة على أنه أبو الفلسفة الحديثة قد عالج القيمة، وخاصة القيمة الخلقية من منظور عقلاني.

فقد رأى ديكارت أن تحقيق الفضيلة يكون ممكنًا حينما يتوافر للإنسان عقل يمتاز تفكيره بالوضوح والتميز، ويقرر بإرادة قوية تحكم انفعالاته وتسيطر على أهوائه، كما تتحقق أيضًا حينما يخضع المصلحة الفردية للمصلحة العامة، وبذلك تتلاشى الأنانية ويسود الإيثار والخير[2].

وإذا عرجنا إلى الفكر المعاصر وجدنا أصحاب المدرسة الوجودية قد أسهموا بشكل مستفيض في عالم القيمة ،حيث إنهم ردوا القيمة إلى الإنسان؛ فالقيمة ليست مستقلة عن الإنسان، فالإنسان هو الذي يعطي للأشياء قيمة عندما يقرر اختيارها، والحرية الإنسانية هي التي تضع القيمة عند الوجودية، ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه نجد نيتشه.

"نيتشه" 1844-1900م:

مما لا شك فيه أن فلسفة "نيتشه" تعد بأسرها نظرية في القيمة، وقد أدت فلسفته إلى تطور نظرية القيمة وازدهارها ولعل نظرية القيمة لم تكن لتأخذ مكانتها الرئيسة من الفلسفة المعاصرة لو لم يشدد نيتشه على أهميتها ويتفحصها بأنفاسه اللافحة.

1- مختار البسيوني، السابق، ص 22.

2- توفيق الطويل، السابق، ص 154، 155.

هذا وقد منح نيتشه مشكلة القيمة طابعها الحاد وأشعل جذوتها، وكان الفلاسفة قبله يتناقشون في أساس القيم أكثر مما يتناقشون في طبيعتها نفسها، وجاء نيتشه فجعل لتصور القيمة أولوية وغَلَّبه على سائر التصورات[1].

وإذا نظرنا إلى فلسفة نيتشه نجد أن حب الحياة الأرضية والدفاع عن العالم المحسوس ضد العالم الآخر هو القضية المقدسة التي آمن بها "نيتشه" والتي من أجلها كانت هجماته الشرسة على الدين والفلسفة والأخلاق، و لم يتخل "نيتشه" عن هذه القضية منذ أن لوح بها في كتاباته الأخيرة، فما الإنسان الأعلى "والعود الأبدي"، إرادة القوة، وهي المفاهيم التي يشير بها "نيتشه" على لسان "زرادشت" والتي تمثل الجانب الإيجابي من فلسفة الإقرار بهذه القضية وتأكيدًا لها؛ فكلمة نيتشه الأولى والأخيرة هي حب المصير، أي: أن يكون الإنسان على صلة بالوجود فيقره على النحو الذي يوجد عليه دون استبعاد أي شيء منه.

وعلى ذلك فإننا نعتقد أن العبارة التي يقول فيها "نيتشه": "أني أحب الحياة وحدها حبا عميقًا"، والعبارة التي يقول فيها: "أنا شدكم يا إخواني أن تظلوا أوفياء للأرض"، هما العبارتان اللتان تنطويان على حقيقة فلسفة نيتشه وبالتالي فإنهما المدخل الطبيعي إلى هذه الفلسفة[2].

وقد استحوذت الأخلاق على كل اهتمام "نيتشه" منذ بداية حياته الفكرية حتى نهايتها المأساوية، فذهب يبحث في قيمة الحياة الإنسانية وكيفية تبريرها على النحو الذي يدفع الإنسان إلى الإقبال من أجل إثرائها وتنميتها والعلو بها[3].

1- صلاح قنصوه، نظرية القيمة في الفكر المعاصر، ص154.

2- يسرى إبراهيم، نيتشه عند المسيح، سينا للنشر ط: 1، 1990م، ص36.

3- السابق ص39.

وينتهي "نيتشه" إلى أن الأخلاق قد تشبعت بالأصنام، وهذه الأصنام تتمثل في رد القيم إلى مصادر غير الإنسان، فالبعض يردها إلى الله، والبعض الآخر يردها إلى عالم المثل، وكأن هنا شيئًا اسمه الخير في ذاته والحق في ذاته أو الجمال في ذاته، فهم يقولون: يجب علينا أن نفعل الخير؛ لأنه الحق، ونتمتع بالجمال؛ لأنه الجمال، بدلاً من القول بأن هذا يتفق وطبيعتي فأنا أفعله، وهذا ما يصلح حياتي ويفضي ويؤدي بي إلى النجاح فأنا اعتقده، وهذا يتلاءم وذوقي ويزيد من حياتي الوجدانية فأنا أُمتِّع نفسي به متعة أخرى، بينما غاية الحياة في نظريته هي الحياة نفسها، وهنا يحطم "نيتشه" أصنام الأخلاق بما يسميه قلب التقويم وهو ما يجب أن يشعله الفرد من ثورة على الأخلاقية التي تسود عصره فيغدو الخير هو كل ما يعلو في الإنسان بشعور القوة وإرادة القوة وأن يصبح الشر كل ما يصدر من الضعف وأن تكون السعادة الشعور بأن القوة تنمو وتزيد[1].

وإذا كان "نيتشه" قد حطم أصنام الأخلاق من وجهة نظره، وهي البعد عما يسمى "الخير في ذاته" والجمال في ذاته، وأصبح المطلوب من الإنسان أن يفعل الفعل؛ لأن فيه سعادته هو، كما يراها كل فرد على حدة، وهو شعور القوة لدى الفرد، فإننا نجد مدرسة قد جاءت ترفض أيضًا الجمال في ذاته والخير في ذاته وتعود بصحة العقل إلى ما يحقق من نجاح للفرد، ألا وهي البراجماتية.

البراجماتية والقيم:

ويسميها البعض "الذرائعية" ويجسد "وليم جيمس" هذه الرؤية التي تحمل الفكر الأمريكي في آرائه، فالقيمة الحقيقية هي "ثمن يدفع نقدًا" أو "قيمة على الصندوق" أو أنها

1- يسري إبراهيم، نيتشه عند المسيح، السابق ص99-101.

نتائج أو فوائد من شأنها أن تستجيب لآراء رجل الشارع. وقد أعرب عن نزعات بيئته العملية وحاول أن يعكس عقلية الإنسان العامي في أمريكا حيث تبرز نظرة عملية واقعية هي نظرة " التُّجَار وأرباب المال، المتأهبين للمغامرة وارتياد المجهول[1].

ويؤكد جيمس أنه ليس ثمة حاجة لتجاوز التجربة، وبلوغ الروح فالروح هي بالدرجة الأولى جملة حياتنا الذهنية[2]، والحقيقة عنده هي اختراع شيء جديد، لا اكتشاف شيء موجود، وأن مقياسها حائل في مدى نفعها في دنيا العمل، وليس للحياة من هدف إلا العمل المنتج، ومن هنا وجب أن يُسَخَّر العقل في تيسير حياة الإنسان وإشباع رغباته، وألاَّ يشغل نفسه بالبحث في حقائق الأشياء وطبائع الموجودات، إلاَّ متى حقق البحث نفعًا، بل أوجب على الإنسان أن يهتم بوضع الخطط التي تمكننا من السيطرة على الأشياء وتسخرها لصالح الإنسان، ويصدق الحكم بمقدار ما تشهد التجربة بفائدتها عقليا وعمليا[3].

إذًا الفكرة الصادقة هي الفكرة الناجحة في معترك الحياة، وهذا النجاح هو القيمة الأولى، ومصدر القيم "إن التجربة التي تكشف عن المنفعة أو عدمها هي محك الصدق والزيف، ومقياس الحق والباطل، ومعيار الخير والشر"[4].

وينتقد جيمس كل معيار آخر غير هذا المعيار بقوله لقد أقر الفلاسفة معايير شتى وافترضوا أُسُسًا مختلفة للنظام الأخلاقي مثلاً، وذلك كأن يكون الشيء وسطًا بين متطرفين، أو أن تعترف به قوة بديهية خاصة، أو أن يجعل الفاعل سعيدًا وقت الفعل، أو أن يجعل

1- عادل العوا، السابق ص639.

2- نفسه.

3- السابق ص640.

4- عادل العوا، السابق ص640.

الآخرين بالإضافة إلى الفاعل سعداء في النهاية، أو أن يزيد من كمال الفاعل وشرفه، أو ألاَّ يسبب أذى لأحد، أو أن يكون نتيجة عقلية أو ناشئًا من قانون عام، أو أن يكون وفق إرادة الله، أو أن يساعد على بقاء النوع الإنساني على ظهر البسيطة؛ إنها معايير شتى اعترف بكل واحد منها جمع من الفلاسفة ولكن المسألة المعيارية مسألة عملية[1].

وليم جيمس أمثلة حياتية معاشة ليثبت أن الحاجة العملية هي التي تعلن صدق الأحكام القيمية على الأشياء في حياتنا فيقول: ((إن الجائز في عالمنا أقل بكثير من المنشود وهناك دائمًا هُوَّة بين المثالي والواقعي في العالم لا يمكن تجاوزها إلا بالتنازل عن جزء من المثالي، ولا نكاد نتصور حُسْنًا واقعيًا في العالم إلا وهو يزاحم حُسْنًا آخر في كل ما يشغل من زمان ومكان، وأن الغايات لتتعارض دائمًا، فهل يُدَخِّن المرء ويشرب أم يحتفظ بأعصابه في حالة جيدة ؟ لا يمكنه أن يفعل كلا الأمرين، وهل يحب سُعْدى أم ليلى ؟ لا يمكن أن يكون كلاهما موضوعًا لحبه))[2].

ومن هنا يتبين أن الرغبة الفلسفية في إيجاد معيار يخضع فيه بعض الْمُثُل لبعض ليست إلا نتيجة لحاجة عملية، ولابد من أن يضحى ببعض الْمُثُل.

وينضم إلى "وليم جيمس" في المدرسة البرجماتية "جون ديوي" حيث إن الأفكار عنده هي بمثابة الخطط والعروض التي تستمد نتائجها في التجربة، فهي ليست خواصًا لعقل منفصل عن الطبيعة متعال عليها، أو كيفيات نظرية للعقل تناظر كيفيات سابقة مطلقة للوجود، أو مقولات أولية تفرض على الإنسان وتسبق التجربة وتجعلها ممكنة، بل هي نتائج الذكاء الذي يرتبط عند ديوي "بالحكم" أي بانتخاب الوسائل وترتيبها لتحقيق النتائج،

1- وليم جيمس، إرادة الاعتقاد، ترجمة. د. محمود حب الله، القاهرة، سنة 1946م، ص96.

2- عادل العوا، السابق، ص 641.

ويقترن باختيارها ما نتخذه أهدافًا لأنفسنا، فليس الإنسان ذكيًا لحصوله على العقل الذي يدرك بمقتضاه الحقائق الأولية البينة بذاتها، والمبادئ الثابتة التي يستنبط منها أحكامه، بل لسبب قدرته على تقدير الاحتمالات والممكنات في موقف من المواقف الذي يجلب في كل فاعليات الإنسان التي تتسم جميعًا بطابع التقويم، وسلوكه طبقًا لهذا التقدير، فهنا يكون للذكاء معناه العملي[1].

وقد اتفقت النظريات الأخلاقية السابقة على افتراض وجود خير أقصى مفرد ثابت، ولكن تصوره البعض في سلطة خارجية، والبعض الآخر في تحقيق الذات أو في القداسة، أو في أكبر قدر ممكن من اللذة، ولكن الأخذ بنظرية الغايات الثابتة يؤدي بالفكر إلى التورط في حماة المنازعات التي لا يمكن الفصل فيها برأي حاسم. ويقول "ديوي": إن التسليم بمبدأ الغايات الثابتة في ذاتها إنما هو مظهر لبحث الإنسان عن مثل أعلى لليقين، فوراء مفهوم الثابت في العلم أو الأخلاق يقع التمسك بالحقيقة اليقينية وقد نشأ التعلق بشيء ثابت من الإشفاق من الجديد والتشبث بما لدينا، فحب اليقين إذن هو طلب لضمان تقدم العمل، مُغْفِلِين أن الحقيقة لا يمكن أن نبلغها إلا بالمخاطرة خلال التجربة؛ ((التعصب والجمود يجعلان من الحقيقة شركة تأمين على الحياة، فالغايات ثابتة في جانب، والمبادئ ــ أي قواعد السلطة ثابتة في الجانب الآخر. فهي أعمدة الشعور بالأمن، وملاذ الجبان، كما أنها ذريعة الجسور لالتهام الجبان))[2].

1- صلاح قنصوه، نظرية القيمة في الفكر المعاصر، ص149، 150.

2- صلاح قنصوه، نظرية القيمة في الفكر المعاصر، ص151.

ومن ثمَّ يرفض البراجماتيون النظريات المعيارية والتي يُعرِّفها لنا "فرانكانا" بأنها هي التي تحاول أن تخبرنا عما هو "خير" أو ما هو ذو قيمة وما هو شيء وما هو حسن[1]، هذا المفهوم الضيق للنظريات المعيارية الذي يرفضه "جون ديوي" والذي ينكب دائمًا على البحث في مسألة ما هو الخير في ذاته، أو الخير كغاية، وما هي القيمة الباطنية، حيث يرى ديوى أنهم لا يسألون ماذا تكون الخيرية أو القيمة الباطنية، ولكنهم يسألون عن الخير في ذاته والقيمة في ذاتها[2].

وهكذا يعلن "جون ديوي" ومن قبله "جيمس" بأن ضروب الخير وأهدافه لا توجد إلا عندما يكون ثمة عمل ينبغي أن يؤدى، وهذا دليل على وجود نقص ما، أو شر في الموقف الحاضر يجب معالجته، وهذا الشر ليس سوى شر نوعي خاص بهذا الموقف دون غيره، فهو لا يكون أبدًا نسخة مطابقة لشر آخر، كذلك الخير لا يكون مرتين، فهو الجديد كل صباح، الطازج كل مساء وهو العزيز في كل تغيير، فهو يتكشف نتيجة التعقيد الذي يميز العادات والدوافع المتعارضة التي لا يمكن أن تتكرر أبدًا، ولا يكرر نفسه إلا مع العادة الجامدة إلى درجة السكون، وهذا الخير لا يكرر نفسه تمامًا لأنه لا يجدي، لأن العادات الجامدة تهبط تحت مستوى أي معنى على الإطلاق[3].

وفي نهاية المطاف يتضح لنا أن القيم عند ديوي وجيمس لا تكمن في التفرقة بين قيم تكون غايات في ذاتها، وأخرى تكون وسائل لغايات ذاتية قصوى، لأن غايات السلوك عنده هي تلك النتائج التي تتنبأ بها والتي تؤثر فيما نقوم به من تروٍ وتبصُّر، وهي التي تسلم السلوك

1- Frankena. w. k. value & valuation in Encyclopedeo of philosophy. New york , 1967 , p.230.

2- I bid, p. 231.

3- صلاح قنصوه، السابق ص152.

في النهاية إلى الرضا بما تمده بالمثير المناسب للعمل الصريح، فالغايات تنبع من العمل وتقوم بوظيفتها فيه[1].

ويعلن "ديوي" خطورة تصنيف القيمة إلى وسيلية وكامنة، لأن ذلك في نظره يؤدي إلى انقسام في الغايات إلى ذاتية ووسيلية إلى غايات قيمتها في نفسها حقًا، وأخرى أهميتها في أنها وسائل لإدراك ضروب من الخير ذاتية، ولكن هذا التقسيم عند ديوي له خطورته كما يقول ولذلك يحدد مخاطر هذا التصنيف في عدة نقاط نوجزها فيما يلي:

من الناحية التاريخية كان هذا التقسيم مصدرًا ومبررًا لوضع حد ثابت محدد كل التحديد بين ضروب الخير المثالية من جهة وبين ضروبه المادية من جهة أخرى.

وفي الوقت الحاضر يرى أولئك الذين يريدون أن يكونوا متحررين واسعي الأفق العقلي، أن ضروب الخير الذاتية جمالية من حيث طبيعتها بدلاً من أن يعتبروها دينية فحسب أو عقلية فحسب، على أن النتيجة مع ذلك واحدة، فما يسمونه أنواع الخير الذاتي، سواء أكانت دينية أم جمالية هي أنواع منفصلة عن مواضع الاهتمام في الحياة اليومية التي تشغل بال الجمهرة العظمى من الناس نظرًا لدوامها وإلحافها وضررها.

إن اعتبار شيء ما خاليا من كل قيمة ذاتية، كان ذلك الشيء غير جدير بالعناية، ومن ثم اختار معظم الناس الذين يعنون بالأمور المثالية طريق التهرب منه وإغفاله، أما ضغط الغايات الدنيا الوضعية، وإلحافها وضرورتها فقد ستروها بتقاليد مهذبة وبعرف مؤدب، أو أحالوا أمر القيام بها إلى طبقة وضعية من البشر حتى تتمكن القلة من الناس أن يكونوا أحرارًا يعنون بالغايات وضروب الخير الذاتي التي لها قيمة حقيقية أو ذاتية في نفسها، فانسحاب الفئة

1- صلاح قنصوه، السابق ص153.

القليلة هذا باسم الغايات السامية، ترك القيام بضروب النشاط العملية الوضعية في أيدي الجمهرة العظمى من الناس ولاسيما العمليين النشيطين منهم يسيطرون عليها تمام السيطرة[1].

ويغدو "ديوي" الوحشية القاسية، والمادية الخسيسة في حياتنا الاقتصادية إلى اعتبار الغايات الاقتصادية مجرد وسائل لغيرها فحسب، ويرى أنه لو اعترف الناس بأن الغايات الاقتصادية ذاتية ونهائية حيت هي شأنها شأن غيرها من الغايات الأخرى، عندئذ يتجلى لنا أنها يمكن أن تتحول هي الأخرى إلى مثل عليا[2].

وهكذا يتضح لنا عند البرجماتية أن القيم المثالية القبلية في نظرهم ليست سوى أسطورة، وأن القيمة حادث إنساني بالدرجة الأولى، وأن الـ "ينبغي " يصدر دائمًا عن أل "يوجد" وإليه دائمًا يعود، بل إن الـ" ينبغي" هو في ذاته الـ "يوجد" أنه الـ "يوجد" متصل بالعمل[3].

تصنيف مواقف القيمة:

مما لاشك فيه أن تصنيف مواقف القيمة واتجاهاتها عند كل الباحثين يرتكز على نظرته الخاصة من تصور القيمة، وموقفه من مكانتها في مذهبه، فمنهم من جعلها امتدادًا لموقفه من الوجود والمعرفة، وهذا هو الاتجاه الغالب عند معظم من عرض لمشكلة القيم، ومنهم من جعلها بداية لفلسفته ومفتاحًا لفهمها، مثل: "نيتشه" و"شيلر"، ولعل هذا من أسباب اختلاف النظرة إلى تصنيف اتجاهات القيمة[4].

1- مختار البسيوني، الوضعية المنطقية بين القيم الدينية والأخلاقية، السابق ص47، 48.

2- السابق ص49.

3- عادل العوا، السابق ص643.

4- صلاح قنصوه، السابق ص53.

ولقد صنف الفلاسفة جلهم القيمة إلى ثنائيات متقابلة، مثل القول بوجود قيم تكون غاية في ذاتها، وأخرى تكون وسيلة مؤدية إلى غاية، ومما لا شك فيه أن هذا التقسيم يشوبه التعسف أحيانًا؛ لأن ما نظنه غاية في حد ذاته سرعان ما يتحول إلى وسيلة مؤدية إلى غاية أعلى منه ننشد فيها القيمة.

ومهما شاب هذه التصنيفات من تعسف واضح إلا أنها عادة ما تتخذ سلسلة من الأزواج كالقيم الكامنة 'imtrinsic' في مقابلة الوسيلية 'instrumental' والقيم العليا في مقابل الدنيا، والثابتة في مقابل المتغيرة... إلخ[1].

ولقد حاول "لويس" Lewis أن يقدم تصنيفًا لنظريات القيمة، يقوم في جزء كبير منه على الثنائيات كما يلي:

تصنيف القيم على أساس ما يحقق المنفعة في مقابل القيم التي لا تحقق منفعة.

تصنيف القيم على أنها وسيلة، أي أن هناك قيمًا تعد وسائل لغايات أبعد منها، مثل القيم التي تكون وسيلة لتحقيق الخير والسعادة.

وهي قيم في مقابل القيم الوسيلية، ويسميها القيم الباطنية، مثل قولنا: الخير في ذاته أو الرغبة كغاية في ذاتها.

القيم المساهمة، وهي تلك القيم التي تساهم الخبرة أو جزء من الخبرة في تكوينها، وهي ليست وسائل ولا غايات؛ بل هي تدخل في نطاق السلم القيمي بشكل إسهامي، ومثل ذلك: أن عودًا من الخشب قد يكون ذا قيمة في صنع الكمان، والكمان قد يكون ذا قيمة عرضية لكونه وسيلة مساهمة لموسيقى ممتعة، والموسيقى قد تكون ذات قيمة أصلية إذا أمتعت

1- هترميد، الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، ترجمة د. فؤاد زكريا، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط: 2، 1975م، ص274.

السمع، والتجربة السمعية تكون ذات قيمة ذاتية إذا كانت تهدف إلى المتعة ذاتها، وقد تكون ذات قيمة مساهمة إذا كانت تساهم كجزء من مساء سعيد أو عطلة أسبوعية سعيدة "[1].

القيم الأصلية: وتمثل الأساسية للأشياء، مثل القيمة الجمالية لعمل فني من خلال إبراز الخبرات الجيدة عن طريق السماع أو التأمل النظري[2].

ويصنف "أميل برييه" نظريات القيمة إلى نمطين:

النظرية النقدية، وترجع في أصولها إلى فلسفة كانط، وهي تقول: بأن القيمة وليدة ضرورة تفرضها طبيعة الشخص المدرك على الأشياء، فمن ذلك ما يذهب إلى إشباع مذهب "كانط" من أن القيمة الموضوعية للمعرفة لا تنجم عن مطابقتها للشيء الخارجي؛ بل من مطابقتها للشروط الشخصية التي يمكن أن تجعل الشيء الخارجي موضوعًا لمعرفتنا.

النظرية السيكولوجية "النفسية" التي تعتمد على الميول والحاجات التي تتألف منها الحاسية الإنسانية، فقيمة أحد الأشياء، أو القيمة الغذائية لطعام مثلاً هي العناصر التي يحتوي عليها الشيء وتكون مطابقة لحاجاتنا، فحساسيتنا تشبه لوحة حساسة تكشف لنا عن القيم التي لا وجود لها خارج اللوحة[3].

ويصنف "إميل بربيه" أيضا القيم إلى الأزواج المتقابلة، فهناك النظريات الذاتية، منها النقدية والسيكولوجية، ثم تتبعها النظريات الموضوعية، فنجد عنده الذاتية في مقابل الموضوعية

1- مختار البسيوني، السابق، ص40، 41.

2- Frankema W.K.: op cit, p. 230

3- أميل برييه، اتجاهات الفلسفة المعاصرة، ترجمة: محمود قاسم، دار الكتب للنشر، بيروت، 1956م، ص84، 85.

ومن ثم فإنه يضحى بتصنيفات أخرى عديدة قد حاول غيره سردها مثل "فرانكانا" فهو يقسم مواقف القيمة إلى عدة مواقف على ما يلي:

النظريات الانفعالية الحديثة، كما نجدها عند "إير" الذي يعتقد أن القيمة لا تحمل إلا معنى انفعاليًا إن صح أن يكون لذلك معنى على الإطلاق.

نظريات الحدسيين واللاطبيعيين، الذين يرون أن القيمة في غالب الأحيان خاصة ذاتية باطنية لا يمكن تعريفها، ومن ثم فهي موضوعية أو مطلقة، مثل: أفلاطون ومور وروسى ولبرد ومينويخ وهارتمان[1].

ونتعرض للتصنيف الثالث عند "فرانكانا" من حيث الثنائيات المتقابلة وهو:

نظريات الأخلاق الميتافيزيقية والطبيعية، ويميل أصحابها عادة إلى الاعتقاد بأن القيمة يمكن تعريفها على أسس ميتافيزيقية، أو طبيعية كأن تكون بيولوجية أو سيكولوجية مثلاً وحكم القيم لديهم له اتجاه معين أو مجموعة من العقول إزاء الموضوع الموصوف بالقيمة، وتعد القيمة بالنسبة لبعضهم موضوعية أو مطلقة بمعنى أن لها مكانة وموضوعًا واحدًا من الناس جميعًا، ثم عاد فرانكانا فصنف نظريات القيمة على أساس ما يشير إليه بفلسفة ما وراء الأخلاق في أمريكا منذ عام "1930م" حتى عام "1964م" إلى النزعة الحدسية عند "إيربان" و"ليبمان" وإلى النزعة التجريبية بصوريتها الطبيعية عند "بيري" و"باركر"، والبرجماتية عند "ديوي" و"هوك"، وإلى النظريات اللاعرقانية، وهي التي تنكر القيم موضوعًا للمعرفة عند "جورج سانتيانا "من الواقعيين التقدميين و"كارناب" و"رايشنبخ" و"فايجل" من الوضعيين

1- صلاح قنصوه، السابق ص57.

المناطقة، وأخيرًا إلى النظريات الدينية الباحثة عن أخلاق يهودية مسيحية عند "بول نيلسن" و"شليور"[1].

وثمة تصنيفات أخرى متعددة للقيمة منها تصنيف القيمة على الأساس الأعلى والأدنى، ومنها ما هو عضوي، وما فوق العضوي مثل تصنيف "إيريان" الذي يصنف القيم على أنها عضوية أي "جسمية واقتصادية ترويحية"، وفوق العضوية أي: "الشخصية والعقلية والجمالية والدينية"[2].

وهناك تصنيف آخر للقيمة على أساس الثنائية المزدوجة، فيصنف القيم إلى قيم اشتمالية، وقيم استبعادية، فالقيم الاقتصادية عادة ما تكون استبعادية، إذ أن امتلاك أشياء يحول بينك وبين كل شخص آخر أن يمتلك نفس هذه الأشياء، وهناك مثال للقيمة الاشتمالية مثل: الدعاية، ففي صالة العرض السينمائي أو المسرحي مثلاً نجد في كثير من الأحيان أن الأشخاص الذين لا يعرف بعضهم بعضًا ينظرون إلى بعض عندما يضحكون على شيء ما على خشبة المسرح أو على الشاشة، وهناك مثال آخر للقيمة الاشتمالية، وهو الاستمتاع بالجمال، فمعظمنا يجد هذه اللذة أعظم بكثير عندما يكون في استطاعتنا مشاركة غيرنا في التجربة الجمالية[3].

1- مختار البسيوني، السابق، ص45.

2- السابق ص49.

3- مختار البسيوني، السابق، ص49، 50.

خاتمة:

بعد هذا العرض التاريخي التحليلي للمواقف المتضاربة حول معنى القيمة فإننا رغم وضوح ذلك التضارب في تحديد معنى القيمة إلا أننا نستطيع القول بأننا لا ننفي وجود صفات أساسية للقيمة، أهمها أن القيمة إنسانية بمعنى: أنها تقوم على الفاعلية الإنسانية، ومن ثم قد يسيطر عليها العنصر الذاتي سواء الذاتي الفردي، أم ذاتية الجماعة"[1].

فإذا كانت القيمة هي المنفعة أو اللذة، أو السرور، أو الاهتمام أو التفضيل والاختيار، فكل هذه المعاني إنما تتلفَّع بالعنصر الذاتي الإنساني، حيث إنها إنسانية، ومن ثَم فهي ذاتية يحسها كل فرد منا بنوع خاص من الإحساس، ومن ثم فالقيمة لا تحدد ولا تقاس، كما تقاس الأشياء والموجودات؛ لأن القيمة لا مادية برغم اختلاطها بالمادية، حيث إنها لا تكمن في الأشياء المادية بل تكمن في اعتقاد الأشخاص في الأشياء، فالقداسة التي تلقى على بعض الناس أو بعض الأشياء لا تعود إلى صفات ذاتية يمتلكها هؤلاء الناس ولا تلك الأشياء بقدر ما تعود إلى اعتقاد الأشخاص، وعلى سبيل المثال تلك القداسة التي تحملها أضرحة الأولياء عند بعض الناس في مجتمعنا، لا تنبع من صفات ذاتية يمتلكها الضريح ولا صاحبه، بقدر ما تنبع من اعتقاد ذاتي لدى بعض الناس[2].

ولو ذهبنا لقاموس علم الاجتماع لوجدناه يؤكد على أن القيمة محض اعتقاد ذاتي، فالقيمة تكمن في الاعتقاد بأن الأشياء يمكن أن تحقق رغبة إنسانية معينة، وإن القيمة في

1- مختار البسيوني، السابق، ص37.

2- السابق ص 37، 38.

حقيقتها سيكولوجية، ومن ثَم فلا يمكن قياسها بمقاييس العلماء، والقيمة بهذا الاعتبار إن هي إلا اعتقاد ذاتي[1].

بعد التعرض لمفهوم القيمة وآراء الفلاسفة والمفكرين يتضح لنا مدى التضارب والاختلاف من حيث تصنيف مواقف القيمة، وسنجد أن الاختلافات التي حدثت في تحديد مفهوم القيمة هي نفسها التي حدثت في تصنيف مواقف القيمة:

- وجود صفات أساسية للقيمة أهمها إن القيمة إنسانية تقوم على الفاعلية الإنسانية.
- القيمة لا تحدد ولا تقاس كما تقاس الأشياء والموجودات.
- القيمة ليست مادية ولا تكمن في الأشياء المادية برغم اختلاطها بالماديات.
- القيمة تكمن في الاعتقادات بان الأشياء يمكن أن تحقق رغبة إنسانية معينة.
- حقيقة القيمة أنها سيكولوجية، وبالتالي لا يمكن قياسها بمقاييس العلماء.

1- See: Fairchid and other: Dictionary of Sociology New Jersey , Little Field , Adams Co, 1964,P 331.

المصادر والمراجع

أوَّلا: العربية:

1- أميرة حلمي مطر، الفلسفة عند اليونان دار النهضة العربية، القاهرة، 1977م.
2- إميل برييه، اتجاهات الفلسفة المعاصرة، ترجمة محمود قاسم، دار الكتب للنشر بيروت، 1956م.
3- توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية، نشأتها وتطورها، دار النهضة العربية، القاهرة 1967م.
4- صلاح قنصوة، نظرية القيم الفكر المعاصر، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1981.
5- عادل لعوا، العمدة في فلسفة القيمة، طلاي للدراسات والترجمة والنشر وفق 1960م.
6- عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، وكالة المطبوعات، الكويت، 1979م.
7- عبد المنعم الحفني، المعجم الفلسفي، الدار الشرقية، ط: 1، القاهرة 1990م.
8- الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، دار المعارف، القاهرة، 1986م.
9- فيصل بدير عون، محاضرات في الفلسفة القديمة، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة 1992م.
10- مختار البسيوني، الوضعية المنطقية بين القيم الدينية والأخلاقية عند ألفرد اير وكالة الشرق للطباعة، مصر، 2002م.
11- مراد وهبة وآخرون، المعجم الفلسفي، مكتبة يوليو، القاهرة، 1984م.
12- هترميد، الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، ترجمة د. فؤاد زكريا، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط: 2، 1975م.
13- وليم جيمس، الإدارة الاقتصادية، ترجمة، د. محمود حب الله، القاهرة، 1946م.
14- يسرى إبراهيم، نيتشه عند المسيح ما سينا للنشر، ط: 1، 1990م.

ثانيا: الأجنبية:

1- Fairchid and others: Dictionary of sociology, New jeasey, little field. Adams co. 1964.
2- Frankenz. w.k. value & valuation in Encylopedeo of philosophy. New york, 1967. Vol 8, ed, paul Edwards.